حكايات غيرت الدنيا



محسن محمد محسن

الحلم المفزع

من نحوِ مِائةٍ وأربعينَ سَنة ، وفي يومٍ من أيَّامِ سَنةِ ١٨٤٢ م على وَجْهِ الدِّقَّة،عادَ الشَّيخُ المَرِيضُ « إلْياس هاو » من عمَلِهِ المُرْهِق في مصانِعِ إصلاحِ السَّيَّارات ، الَّتي يملِكُهَا الثَّريُّ البَخِيل « دِيفِز » .
وكانَ « دِيفِزْ » يَقْسو على الشَّيخِ المَريضِ « إلياس هاو » ويُعيِّره بِضَعْفِ بِنْيَته ، وكَثْرَةِ أمْراضِه ، وبأنَّهُ يَعيشُ عَالَةً علَى المَصانِع . ولَوْلَا أنَّهُ يُشْفِقُ على أولادِهِ وزوجِه ، ويَقِيهم من التَّشرُّد ، لما تَرَكهُ لَحْظَةً واحدةً يرتَعُ في مَصانِعِه ولا يقومُ بالعملِ الَّذي يستحقُّ عليه ما يتَقَاضَاهُ من أجر .

وكانَ « إلياس هاو » رَغْمَ ذلكَ راضِيًا سعيدًا ، يُحَاوِلُ جُهْدَه إرضَاءَ مِستَر « دِيفِزْ » حتَّى لا يستغْنى عنهُ ويطْرُدَهُ من العمَل ، مِثْلَمَا كانَ يُهدِّدُه دائمًا .

وكان « هاو » يَتقاضَى فى نهايةِ الأُسبُوعِ أَجْرًا ضَئيلًا جِدًا ، لا يتناسَبُ وتَهديداتِ صاحِبِ المصانِعِ ، وتَسَلُّطَهُ الدَّائم عليه .

وينصرف « هاو » وهو يَعُدُّ الدَّراهِمَ القليلةَ فى يدِه ، ويَحارُ كيف يكفِى أَجْرُهُ الضَّئِيلُ هذا مَطالِبَهُ ومَطَالبَ أُسرَتِه كَثِيرَةِ العدَد ، وهو يَعُودُ آخِرَ المَطَاف إلَى بيتِهِ فى المَساءِ يائِسًا مُتْعَبًا ، خائِرَ القُوَى .

وذَاتَ مَساء ، بينما « إلْياس هاو » يعبُرُ أحدَ شَوَارعِ لندن ــ فقد تعوَّدَ أنْ يَتَرَيَّضَ قليلًا قبلَ أن يَعودَ إلى زوجَتِه وأولادِهِ حتَّى لَا تَظْهَرَ عليهِ عَلامَاتُ التَّعَبِ واليأْس ــ إذ رأَى جَمْهَرَةً من النَّاسِ تقِفُ أَمَامَ محَلِّ أحدِ الخَيَّاطِين ، فاقترب يَستَطْلِعُ الخَبر ، فرأَى صبيَّ الخَيَّاطِ يَصرُخُ من الألَم ، فقدْ وَخَزَتْهُ إبْرةُ الحِياكَة ، واستَقَرَّتْ بينَ ظُفْرِهِ ولَحْمِ إصْبَعِه .

تألَّم « إلياس هاو » كثيرًا لألَمِ الصَّبِيِّ المِسْكِين ،

فقَدْ كَانَ لهُ ابْنٌ فى سِنِّ ذلِكَ الصَّبِىِّ ، الَّذِى كَانَ يَخِيطُ الْمَلابِسَ لِيَلْبَسَها غيرُه ، وَيَحْصُلَ مُقَابِلَ جُهْدِه على أَجْرٍ ضَئِيل ، بينَما يستولِى الخَيَّاطُ على النَّصِيبِ الأَكبَرِ مِنَ الأَجْرِ دُونَ تَعَبٍ أو عَناء ، وذَلِكَ الغَنِىُّ الَّـذى يَرْتَـدِى الْحُلَّـة ، ويَـمْشِى بِهـا فى خُيَـلاء ، لَا يَشْعُرُ بِالْجُهْدِ والعَنَاء ، ولَا العَرَقِ الَّذى بَذَلَهُ الصِّبْيَةُ والعُمَّالُ فى خِياطَةِ المَلابِسِ بأَنْوَاعِهَا ، فقد كانت الوسيلةُ الوحيدةُ للخِياطة — فى ذَلِكَ الوقت — هى إبْرَةُ الخِياطَـةِ اليَدَوِيَّـة ، الَّتـى كانت تستَغْـرِقُ وَقْتًـا وَجُهْدًا كبيرين ، لإِنهاءِ قطعةِ ملابسَ صغيرة ، فلم يكن أَحد يعرف — أو حتى يَتنبَّأ — باختراعِ آلَـةِ الخِياطة ، الَّتى تعرِفُونَها الآن .

ورَجَعَ « هاو » إلَى بَيتِه ، ولَمْ يَكَدْ يَستَرِيحُ من تَعَبِهِ ، ومن تأثُرِهِ ممَّا رآهْ فى عِوْدَتِهِ ، حتَّى فاجأَتْهُ زَوجَتُهُ بخبَرِ مرَضِ أَحَدِ أَوْلَادِه ، وبِأَنَّهُم لا يَمْلِكُون

بِنساً واحِدًا لطعامِ الغد ، وقدَّمتْ له نَذْرًا يَسيـرًا مِنَ الطَّعام . فنَحَّى الرَّجُلُ الطَّعامَ رغمَ إلحاحِها ، وانْزوَى فى رُكنٍ من الحجرةِ المُتواضعة ، يفَكِّرُ فى مصيرِهِ ومصيرِ أُسرتِهِ الفَقيرة .

وانـزوتْ زوجـةُ « هاو » فى ناحيـةٍ أُخــرَى مِنَ الحُجرة ، وتناولتْ قطعةَ ملابس ، وراحتْ تُعمِلُ فيها إبرتَها ، لتنتهِيَ منها ثمَّ تتناولَ غيرَها ، حتَّى يتسلَّمَ عُملاؤُها من الجيرانِ ملابسَهم فى موعِدِها ، فقدْ كانتْ تحيكُ لهمُ الملابسَ بأجْرٍ زَهيد ، لتُعاونَ زوجَها قدرَ طاقتِها ، حتَّى يَتمكَّنا منْ مُواصلةِ حياتِهما وتَنشئةِ أولادِهما تنشِئةً صالحة .

وحاولتِ الزَّوجةُ الوَفيَّةُ أنْ تُسَلِّيَ « إلياس هاو » عما يشغَلُ بالَهُ منَ الهُموم ، فقالت :

باللهِ يا عزيزى « هاو » لا تُفكِّرْ كثيرا ، فيكفى



ما نحن فيهِ من عَوَز . تعالَ اشغَلْ نفسَك بخياطةِ هذه القِطعة ، لتُساعدَنى على الانتهاءِ منها وقبضِ أجرِها ، لنستعين به فى عِلاجِ مَريضِنا .. ما رأيُك ؟

قالَ « إلياس هاو » فى أسى :

ــ إنَّكِ تُجهدينَ عينْيكِ وأصابِعك ، والوقتُ متأخِّر .

قالتِ الزَّوجةُ الوَفيَّة .

ــ وماذا بيَدى أن أفعلَ غيرَ ذلك ؟ فيجبُ أن تُسلَّمَ هذه الملابسُ لأصحابِها فى موعِدها ، وإلَّا انقطعَ الجيرانُ عن إحضارِ ملابِسهم لِخياطتِها ، فنفقدُ بذلك مورِدًا هامًّا من موارِدِ رزقِنا .

تململَ « إلياس هاو » وقالَ فى يأس :

ــ المال .. عليهِ اللَّعنة .. فهو أُسُ البلاء .. ليسَ لنا فَحسْب ، بل ولغيرِنا كذلك .. فقد رأيتُ اللَّيلةَ وأنا

قادم صَبِيًّا صغيرا .. بل يكادُ يكونُ طفلًا لم يبلُغِ الحُلُم .. أحسستُ كأنَّه أحدُ أولادى .. وقدِ احترقتْ الإبرة إصْبَعَه . لِمَاذَا خُلِقَ مثلُ هَذَا الصَّبِيِّ شَقِيًّا مِثلَنَا ؟ إنَّهُ المَال فلولاه ما اضطرِرْنَا أنَا وَأَنْتِ وذَلِكَ الصَّبِيّ ، أنْ نَقُومَ بِهَذِهِ الأَعْمَالِ الْمُضْنِيَة ، وَلَذَهبْنَا بِصَغِيرِنَا المَرِيضُ إِلَى أَبْرَعِ الأَطِبَّاء .. آهِ ، لو أَمكَنَ أن أحصُلَ على قَدرٍ أكبَرَ من المال !

قالت زَوجةُ هاو فى قَناعة :

ــ اِحمَدِ الله يَا عَزيزِى علَى نَعمَائِه ، فَهُنَاكَ مَن هُمْ أَفْقَرُ منَّا ، ولكنَّهُم قَانعُون رَاضُون .. ابتَسِمْ وَلا تَيأَسْ فَالحَياةُ كِفَاح .. وَمَن يَدرِى ماذَا تُخفِى لَكَ الأَيَّام ؟ تَعالَ ساعِدنِى ، ولتَكُن الغُرَزُ مُنَسَّقَةً مُرَتَّبَة ، حتَّى نستَحِقَّ ما نأْخُذ من أَجْر .

أَخَذَ « هَاو » قِطعَةَ المَلابِسِ مِن زوجَتِه ، وَرَاحَ

يُغْرِزُ فِيهَا الإِبْرَة ، وَعَينَاهُ تُرَاقِبَانِ زوجَتَهُ المِسكِينة ، وَهِىَ تَخِيطُ قِطْعَةً أُخرَى على ضَوءِ المِصبَاحِ الخافت ، فتُدخِلُ الإبرَةَ وتُخرِجُهَا فى سُرعَةٍ وَإِتْقَان ، دُونَ خَطَأٍ أو تَقصِير ، بينَما هو لم يَنتَهِ مِن خِيَاطَةِ شِبْرٍ وَاحِدٍ فِى قِطعَةِ القُمَاشِ الّتِى بِيَدِه .

وتَنَهَّدَ « هَاو » .. فَهُوَ لَا يُحِبُّ أَن يَرَى زوجَتَهُ المِسكِينَةَ علَى هَذِهِ الحَال .. فَهِىَ تُعْنَى طولَ النَّهَارِ بالبَيتِ والأولاد ، ثُمَّ تعمَلُ طولَ اللَّيلِ مُقَابِلَ أَجرٍ زَهِيد ، لَا يَأْتِيهَا بِغِذَاءٍ كَافٍ تُوَاجِهُ بِهِ كُلَّ هَذَا التَّعَب ، كَيفَ يُمكِنُهُ أَن يَزِيدَ أَجرَهُ بَعِيدًا عن مصانِعِ السيَّارات اللَّعينة .. كيفَ يُوَفِّرُ علَى زَوجَتِهِ كُلَّ هَذَا العنَاء ؟

وتذَكَّرَ « هاو » صَبِىَّ الخَيَّاط ، وكيفَ كَانَ يَتالَّم إذ غُرِسَت الإبرَةُ فِى إِصبَعِه .. تُرَى هَل يُمكِنُ أَن

يَصنعَ إنسانٌ آلَةً تَقومُ بِهَذا العَمَل ، كما سَبَقَ واختَرَع إبرَةَ الخِياطَة ؟

هَلِ الخِياطَةُ بِآلَةٍ ميكانيكِيَّة ، أَمرٌ مُستَحيل ؟

لقد حَاوَلَ الكَثِيرونَ من قَبل أن يَصنَعُوا آلَةً لِحِيَاكَةِ المَلَابِس ، ولكِنَّهُم فَشلُوا . ولكن لَا يَأْسَ مع الحَياة ، كَمَا تَقولُ زَوجَتُه الوَفِيَّة .. تُرَى هَل يَستَطِيعُ إنسَانٌ بَسِيطٌ مِثلُه ، ذُو حَظٍّ ضَئِيلٍ مِنَ الثَّقافَة ، أن يَختَرِعَ مِثلَ تِلكَ الآلَة ، الَّتِى تُوَفِّرُ عَلَى زَوجَتِهِ الْمِسكِينَةِ عَنَاءَ العَمَل ؟ . آه لو تَحَقَّقَ لَهُ هَذَا ، إِذَن لَرَبِحَ مَالًا مَوفُورا ، وَلَهُرِعَ إِلَيهِ الكَثِيرونَ يَلتَمِسُونَ مِنهُ شِرَاءَ حَقِّ اختِراعِ تِلكَ الآلَةِ الغَرِيبَة . ولكِن متَى يَتَحَقَّقُ هذا ، وكيفَ السَّبيلُ إليه ؟

استغـرقَ « هَاو» فِى التَّفكِيـر ، وَعَينَـاهُ تَرَاقِبَـانِ أَصَابعَ زوجتِه وهِىَ تُحـرِّكُ الإبـرَةَ فى القُمَـاشِ دونَ

تَوَقُّف .

وَسَأَلَ نفسَه : لِمَ لا ؟ فَالعَقلُ لَا يَعجِزُ عن صُنعِ شيءٍ إذَا فكَّرَ فِيهِ بِجدِّية ، وكانَ لَدَى صَاحِبِهِ الإِرَادَةُ الحقيقيَّةُ لتنفيذه .

وَرَاحَ « هاو » يُفَكِّرُ فِى تِلكَ الآلَةِ الَّتى ستُوفِّرُ علَى زوجَتِهِ جُهدَهَا ، وَجُهودَ غَيرِهَا مِمَّن يَخِيطُونَ المَلَابِسَ بأَيديهِم .

هَا هِىَ زوجَتُهُ تدفَعُ الإبرَةَ بِيَدِهَا لتَدخُلَ فِى القُمَاش ، ساحِبَةً الخيطَ مَعَهَا ، ثُمَّ تُعِيدُ دَفعَهَا مِن أَسفَلِ القُماش .

فَكَيفَ يُمكِنُ الآلَةَ أَن تَدفَعَ الإبرَةَ هكذَا دَاخِلَةً خارِجَةً فِى ثَنَايَا القُماش ؟ لو كانَ فِى كُلٍّ من طَرَفَى الإِبرَةِ سِنٌّ حادّ ، وكانَ فِى وَسَطِهَا ثَقبٌ يُلضَمُ فِيهِ الخَيطُ ، لَأَمكَنَ رَفعُ الإبرَةِ وَإنزَالُهَا فِى القُمَاش ،

وَجَذْبُ القُمَاشِ مِن تحتِهَا باليد .

وهَكَذَا شَغَلَ الأَمرُ ذِهنَ « إلياس هَاو » حتَّى نَام عَلَى الأَرِيكَةِ الَّتى كان يَجلِسُ عليها ، وَقِطعةُ القُمَاشِ بينَ يَدَيه ، فتَبَسَّمتْ زوجتُه ، وَقَامَتْ لِتَوِّهَا فَسَحَبَتْ قِطْعَةَ القُمَاشِ من بينِ يَدَيه ، وَدَثَّرَتهُ بِغِطَاء ، ثمَّ عَادَت إلَى مكانِها تَستَأنِفُ الخِيَاطَةَ دُونَ تَوَقُّف .

* * *

شَغَلَ أَمرُ الخِيَاطَةِ الآلِيَّةِ بَالَ « هَاو » حتَّى إنَّهُ بَاتَ لَيلَةً مُؤَرَّقَةً يُفَكِّرُ فِى الأَمرِ . وَعِندَمَا ذَهَبَ إلَى المَصنَعِ فِى اليوم التَّالى كانَ شَارِدَ الذِّهن ، لَا يُفَكِّرُ فيما بَينَ يَدَيه ، فَصَرَخَ فِيهِ أَحَدُ زُمَلائِه :

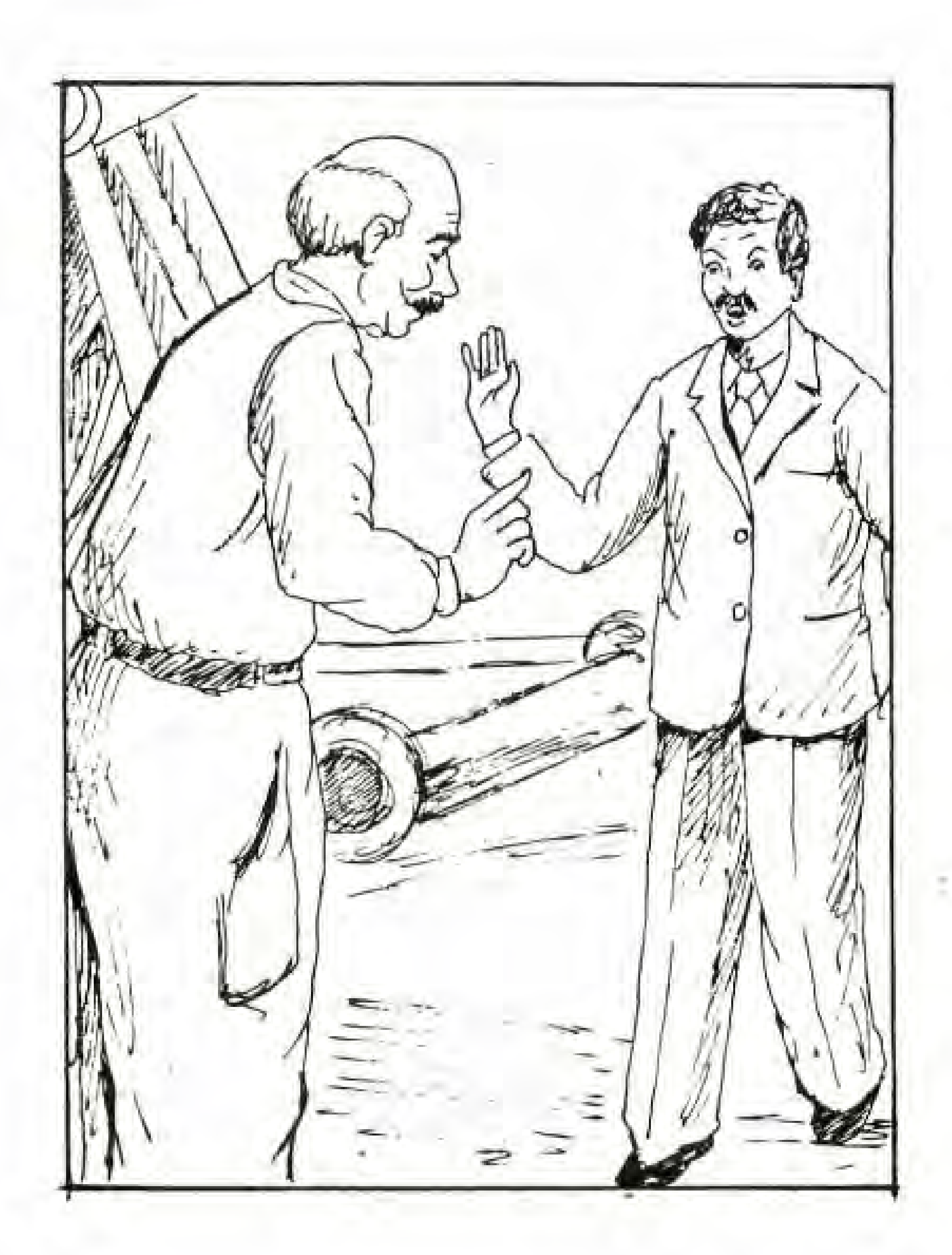
ـــ ماذَا بِكَ يا « إلياس هاو » أَجُنِنْتَ يا رَجُل ؟ لَقَد كِدتَ تَتَسَبَّبُ فِى قَطعِ يَدِك ، بِسَبَبِ شُرُودِ ذِهْنِك .

وانتَبَهَ « إلْياس هَاو » فوجَدَ أَنَّ زَميلَهُ قَد أَنقَذَ يَدَهُ فِي آخِرِ لَحظَة ، قَبلَ أَن يَهوِيَ عليهَا الجَنزِيرُ الضَّخم .

ومَا كَادَ « هَاو » يَستَرِدُّ أَنفاسَهُ ، حَتَّى عَادَ لِشُرُودِهِ مِن جَدِيد ، ولكنَّهُ أَفَاقَ علَى صوتٍ آخَرَ ، كَانَ صَوتَ البَخِيلِ « دِيفِزْ » يَصْرُخُ فِيه :

ــ أَتُرِيدُ أَن تَأْتِينِى بِمُصِيبَةٍ يا « إلياس هاو » .. هيَّا اتْرُكِ العَمَلَ مِنْ فَورِكَ ، وَلَا تَعُد إلَّا وَأَنتَ صَاحِى الذِّهن ، تستطِيعُ أَن تُرَكِّزَ انتِبَاهَكَ فِيمَا بَينَ يَدَيك ، فَإِنِّى لَا أُحِبُّ أَن أَتَحَمَّلَ مَسئولِيَّةَ إهمَالِك .

وَعِندَمَا عَادَ « إلياس هاو » إلى البَيت ، وَجَدَ أَنَّ ابنَهُ الآخَرَ قَدِ انتقَلَتْ إلَيهِ عَدوَى المرض ، وأَنَّهُ يَحتَاجُ إلَى الطَّبيب ، وإلَى الأَدوِيَةِ مِن جَديد ، وَلَكِنَّ الأَمرَ لَم يَشغَلْ بَالَه ، قَدْرَ مَا شَغَلَهُ أَمرٌ آخَر ، رَاحَ يُحَدِّثُ بِهِ نَفسَهُ :



ــ أَلَا يُمْكِنُ أن تُصنَعَ آلَةٌ ، تَغرِسُ الإبرَةَ فِي القُمَاشِ وَتَنزِعُهَا عَلَى التَّوالِى ، فَتعمَلُ الغُرَزَ وتَخِيطُ المَلَابِسَ ، بَدَلًا مِنَ الجَهدِ اليَدوِىِّ المُضنِى ؟ .. لو تَحَقَّق ذَلِكَ فَأَىُّ نِعْمَةٍ تكون !

اقتربَت مِنهُ زَوجَتُهُ الحَنُون ، وَقَالَت :

ــ أَتُكَلِّمُ نفسَكَ يَا إلْيَاس ؟ مَاذَا بِكَ يَا عَزِيزِى ؟ فَإِنِّى أَرَاكَ مَشغُولَ البالِ مَهمُومًا مُنذُ أسابيع ؟

قَالَ هَاو :

ــ هَل تَذكُرِينَ الطِّفلَ صَبِىَّ الخَيَّاط ، الَّذِى حَدَّثتُكِ عَنه تِلكَ اللَّيلَة ؟

قالت المَرأةُ مُندَهِشَةَ :

ــ أمَا زِلتَ تُفَكِّرُ فِيهِ حتَّى الآن ؟ هَل حَدَثَ لَهُ شَىء ؟ ، مَاذَا جَرَى له ؟

أَطلَعَ « إلياس هاو » زوجَتَهُ عَلَى أفكَارِهِ وَأحلَامِه

الَّتى تُرَاوِدُه ، فَقَالَت لَهُ ضَاحِكَةً :

ـــ وَلِمَ لَا تُحَقِّقُ أَفكَارَكَ بِنَفسِكَ ؟ فَلا شَىءَ يعجَزُ الإِنسَانُ عن تَحقِيقِه . إذ وَهَبَ لَهُ اللّهُ نِعمَةَ العَقلِ الَّذِى يُفَكِّرُ بِهِ ، وَعَلَّمَهُ مَا لَم يَعلَم .

فَسَأَلَهَا « إلياس » مُتَعَجِّبًا :

ـــ وَهَل تَظُنِّينَ أَنِّى أَستَطِيعُ ـــ أنا « إلياس هاو » العَامِلُ البَسِيطُ الفَقِيرِ ـــ أَن أَصنَعَ تِلكَ الآلَةَ ؟ .. إِنَّهُ مُجَرَّدُ حُلمٍ يَملأُ كِيَانى .

ضَحِكَتِ الزَّوجَةُ الوَفِيَّة ، وقَالت : أَنتَ ذَكِىٌّ يَا « هَاو » ، فَهَيَّا تَقَدَّم وَحَقِّق أَفكَارَك ، وَأَنَا وَرَاءَك .

وكَانَتْ بِدَايَةُ الانطِلَاقَةِ أَن عكَفَ « إلياس هَاو » على تَصمِيمِ بَعضِ الرُّسُومِ المَبدَئِيَّةِ عَن فِكرَةِ آلَةِ الخِيَاطَة .

وَنَجَحَ الرَّجُلُ فِى تَنفِيذِ أَفكَارِهِ عَلَى الوَرَق ، وَبَدَأَ

يُفكرُ فى تنفيذِهَا فى الوَاقِع ، مُستعِينًا بالعُدَدِ وَالآلاتِ المَوجُودَةِ فِى مَصَانِعِ السَّيَّاراتِ الَّتى يَعمَلُ بهَا ، ولَكِنَّ الأَمرَ لَم يَكُن سَهلاً ، فَهُوَ يَحتَاجُ إِلى نُقُودٍ للصَّرفِ عَلى مشرُوعِـهِ الجَديد ، وبِالطَّبعِ لم تكُن إيرادَاتُ زوجَتِهِ مِنَ الخِياطَةِ بيدِها ، تَكفِى لِشرَاءِ ما يَحتَاجُ إلَيهِ مَشرُوعُه .

واضطُرَّ « هَاو » إلى الاستِدَانَةِ من أَحَدِ الأَثرِياء ، بِضَمَانِ مَشرُوعِهِ الجَديد ، إِلَى أَن جَاءَ اليَوم الَّذى استطَاعَ فيهِ أَن يَصنَعَ نَمُوذَجًا مُصغَّرًا لِأَوَّلِ آلَةِ خِيَاطَةٍ فِى التَّاريخ ، وَصَاحَ الرَّجُلُ فَرِحًا :

ــ لَقَد نَجَحتُ أخيرا ، أَيُّهَا الزَّوجَةُ الغَالِية ، فِى صُنعِ أَوَّلِ آلَةِ خِيَاطَة ، وَلَم تَبقَ إِلَّا خُطوَةٌ واحدة ، هِىَ تَركِيبُ الإِبرَةِ فِى هَذِهِ الآلَة ، لِتَغرِسَهَا فِى القُمَاش ، وَتَخِيطُ لَكِ الغُرزَةَ الآلِيَّةَ السَّرِيعَة ، الَّتى ستُرِيحُكِ مِن

عَنَاءِ استِعمَالِ الإِبرَةِ بيَدَيكِ الرَّقِيقَتَين .

تَعَجَّبتْ زوجَةُ « هاو » وسأَلته :

ــ أَيُمكِنُ حَقًا أن تَحُلَّ هَذِه الآلةُ المصنوعةُ من الخشبِ والأَسلاكِ والتُّروس الغريبة ، مَحَلّى فِى خِياطَةِ المَلَابِس ؟

قال « هاو » وهو يضحك :

ــ سَتَكُونينَ بِمشيئَةِ الله ، أَوَّل من يَستعملُ آلَةَ الخياطة فِى العَالَم .. ولكن ما يشغَلنى الآن هو أَمرُ الإبرة .. فأَينَ أَضَعُهَا يا عَزيزتِى ؟ فكّرى معى .

سألَتِ المرأةُ فى دهشة :

ــ أىَّ إبرَةٍ تَعنى ؟

أَجَابَ « هاو » وَهو يضحك :

ــ الإبرةُ التى تَخِيطينَ بها ، فَسَنَلضُمُ فيها الخيط ، وتَتولّى الآلةُ غرسَهُ فِى القُماش .

وكانَ الأمرُ غريبًا على زوجَةِ « هاو » ، فَعَادَتْ تَسألُ من جديد :

ـــ ولكن مَن الّذى سيُخرِجُ الخيطَ مِنَ النَّاحيَةَ الأُخرى مِنَ القُماش ، وهل تُحَرِّكُ الآلةُ القُماشَ أمامَها لِتَصنَعَ الغُرزَةَ بعدَ الغُرزة ؟

عرضَ « إلياس هاو » أسفلَ الماكِينةِ على زوجتِه ، وَأشَارَ إلى المَكُّوكِ قائلا :

ـــ هَل تَرَيْنَ هَذهِ البَكَرَةَ الصَّغيرة ، والخيوطَ المُلتَفَّةَ عليها ؟

نَظَرتِ الزَّوجَةُ إلى حَيثُ أشَارَ « هاو » ثم عَادَت تَسألُه :

ـــ تَعنِى أنَّكَ سَتَضَعُ بَكَرَةَ خَيطٍ بأعلَى الآلَة وبكرةً أخرَى بِأسفَلِهَا ، أى سَيكونُ هُناكَ خَيطان .. كيفَ هَذَا ؟

ضحِكَ « إلياس هاو » وقال :

ـــ سَينزِلُ خيطُ البَكَرَةِ العُليَا بوَسَاطَـةِ الإبـرَة ، فَيلتَقِطُ الخيطَ الثَّانى مِنَ البَكَرَةِ السُّفلَى فى الآلة ، وتُسَمَّى « المَكُّوك » ، وهَكَذَا تُصنَعُ الغُرزَة .

صَفَّقَتِ المرأةُ بِيَدَيهَا وقالت :

ـــ مَعنَى هذَا يَا عَزيزى « هاو » أنَّ الخِياطَة تكُونُ مَتِينَةً جدًّا ، حيثُ تَكُونُ فيهَا غُرزَةٌ من أعلَى وأُخرى من أسفَل .

قال « هاو » وَهُوَ يُشيرُ إلَى مَلابِسِ الجِيرانِ المُكَدَّسَةِ فَوقَ النَّضَد :

ـــ وسَريعةً كذلك فَوقَ أنَّهَا متينة .. والآن ناوِلينى إبرَةً مِن إبَرِكِ لأُثبِّتَهَا فِى الآلة ، لِتَرِى النَّتيجةَ معى .

ولكنَّ « إلياس هاو » فَشِلَ فى تَنفِيذِ مَشروعِه ، فَعِندَمَا وَضَعَ الإبرَةَ فِى الآلة ، وَبَدأ يُحَرِّكُها لِيصنَعَ

أَوَّلَ غُرزَةٍ آلِيَّةٍ فى التَّاريخ ، كانَ الخَيطُ يَعُودُ معَ الإبرَةِ فَيدخُلُ فى القُمَاشِ وَيَخرُج ، دُونَ أَن يَلتَقِطَ خيطَ المَكُّوكِ كَما كان يَتَوَقَّعُ « إلياس هاو » .

وحَزِنَ الرَّجُلُ حُزنًا شَدِيدًا لِفَشَلِ فِكرَتِه ، وبَلغَ بِه الحُزنُ مُنتَهَاه ، عِندَمَا تَذَكَّرَ أَنَّهُ انقَطَعَ عَنِ العَمَلِ فِى مَصَانِعِ السيَّارات ، لِيَتَفَرَّغَ لإنهَاءِ مشرُوعِهِ الفَاشِلِ ، فقد كَانَ يُؤَمِّلُ أَن يُسَدِّدَ كُلَّ دِيُونِهِ من وَرَاءِ فِكرَتِه ، فَاضطُرَّ أَن يَبِيعَ بعضَ أَثَاثِ بيتِه ، لِيُسَدِّدَ بعضَ دينِه للثَّرِىِّ ، الَّذِى عَلِمَ بِفَشَلِه .

وعَادَ « هاو » إلَى مَنزِلِهِ يَجُرُّ أَذيَالَ الخَيبة ، ووقَفَ لَحَظَاتٍ يائِسَةٍ أَمَامَ نَمُوذَجِهِ الأَوَّلِ لِآلَةِ الخِياطَة ، وَأَمسَكَ بالنَّمُوذَجِ وَهَمَّ أَن يُلقِىَ بِهِ بَعِيدًا فى إبَّانِ ثَورَتِهِ ، ولَكِنَّ الزَّوجَةَ الوَفِيَّةَ أَوقَفَتهُ وَقَالَت فِى حَنَان :

ــ أَتَتَوَقَّفُ عَنِ المُضِىِّ فى تَحقِيقِ ما تُرِيد ؟



قال فِى أَسى :

ــ وَهَل أَملِكُ غَيرَ هذَا ؟ أَلَا تَرَينَ أَنِّى لَم أُسَبِّب لَكِ إِلَّا المَتَاعِب ؟ فقَد فَقَدتُ وَظِيفَتِى ، وَبِعتُ أَثَاثَ بَيتِك ، بَدَلًا مِن أَن أَمنَحَكِ الرَّاحة الَّتى كُنتُ أَطلُبُهَا لَك .

ابتسمت المرأةُ وأجابت فى إصْرار :

ــ وهل دَرَستَ يَا عزيزى مُحَاوَلاتِ مَن سَبَقُوك فى هَذَا المَجَال ؟ لو فَعَلتَ يا « هاو » لعَرَفتَ أَينَ يقعُ العيبُ فِى فِكرتِك .. كما أَنَّكَ لم تدرُس الهندسَةَ الآلِيَّة ، فَعَليكَ أَن تُعِيدَ الكَرَّةَ من جديد ، وَسَتُوَفَّقُ إِن شَاءَ الله .

فتعجَّبَ « هَاو » وسأَل :

ــ ومِن أَينَ نَعِيشُ يا عزيزتى ؟

أَجَابَتِ الزَّوجَةُ المُخلِصَةُ ، فِى عِنَادٍ وإصرار :

ـــ سأزِيدُ من طاقتِى .. وَسَأُعَوِّضُكَ عنْ تِلكَ الآلَةِ وَكَأَنَّهَا مَوجُودَة . ثُمَّ إنَّهُ يُمكِنُكَ أنْ تَبيعَ مَا تَشاء .. وَإنَّمَا حَقِّق ما بَدأْت .. وشعورِى لَا يَكذِبُنِى بِأَنَّكَ ستَنجَحُ يَا عَزِيزى « هاو » .

وَعَمِلَ « هاو » بِنَصِيحَةِ زوجَتِهِ الوَفِيَّة ، وَبَدَأَ يَدرُسُ كلَّ مُحَاوَلَاتِ مَن سَبَقُوه ، وَأَسبَابَ فَشَلِهِم ، ومَن حاوَلُوا قَبلَه تحقيقَ حلمِ آلَةِ الخِياطَة .

وغَيَّرَ « هاو » وضعَ الإبرة فى الآلَةِ عِدَّةَ مرَّات ، وَصَنَعَ عِدَّة نَمَاذِج مختلِفَةِ الأَشكالِ للآلَة ، ولكنَّه فَشِل فِى كلِّ مَرَّةٍ فى أَن يَحصُلَ على غُرزَةٍ واحدةٍ، أَو أَن يَجعَلَ الخَيطَ الأَوَّل يَلتَقِطُ الخيطَ الثَّانِى منَ المَكُّوك .. فَأَحَاطَت بالرَّجُلِ الدُّيون من كلِّ جَانب ، وتَمَلَّكَهُ اليَأْسُ الشَّديد ، خاصَّةً وَقَد دَاهَمَ المرضُ الزَّوجَةَ الوَفِيَّة .

إِلَى أن كَانَ يَومُ الأَحد من سنة ١٨٤٤ م ، أى بعدَ عامَين كامِلَينِ من مُحَاوَلاتِ « هاو » اليَائِسَة إذ نَامَ الرَّجُلُ على مقعدِه مَحْزُونًا مَكدُودا ، بَعدَ فِكرٍ وعَمَلٍ طَوِيلَين دُونَ جَدوَى ، فَرَأَى فِيمَا يَرى النَّائِمُ حُلمًا غَرِيبًا مُزعِجًا ..

رأَى العُرَاةَ الحُفَاةَ من آكِلِى لُحومِ البَشَر ، يُحِيطُونَ بِهِ مِنْ كلِّ جانب ، وقد وَضَعُوا القِدرَ عَلَى النَّار ، يَنتَظِرونَ التَّضحِيَةَ بِه ، بَينَمَا زَعِيمُهُم يَصيح فى صَوتٍ مُجَلجِلٍ رَهيب :

ـ نُرِيدُ آلَةَ الخِياطَةِ يا « هاو » نُرِيدُكَ أَن تَكسُونَا بثيابٍ من خِياطَتِها ، وإِلَّا أَلقَينَاكَ حَيًّا فى هَذِه القِدر .

وصَرَخَ « هاو » مَفزُوعًا ، ولكنَّ المُتَوحِّشِينَ اقترَبُوا منهُ بِحِرَابِهِم البِدَائِيَّة ، وهُم يَقتَادُونَه نحو زَعِيمِهِم :

ـ اترُكُونِى سَأَعرِفُ سَبَبَ فَشَلِى .. فقَط

أعطُونى فُرصَةَ ..

استمرَّ المتوحِّشونَ يَدفعُونَ « هاو » بِحِرَابِهِم ، ولاحت منهُ التِفَاتَةٌ إِلَى حربةِ أَحَدِهِم فوجَدَها غَريبةَ المنظر ، فصاح :

ــ قفوا وابتَعِدُوا عَنِّى .. فقد وَجَدتُ الحلّ .. وجدتُ الحلّ ..

صاح زعيمُ المتوحِّشين :

ــ أينَ هو ؟ هيَّا أَعطِنَا آلَةَ الخِياطَةِ فورا .

صاح « هاو » :

ــ الحلُّ هُنا .. فى حَربةِ زَمِيلِكم هذَا .. إنَّها مُدَبَّبةٌ مثل إبرةِ الخِياطة ، وفِى نِهَايَتِهَا ثَقبٌ كَثَقبِ الإبرة .. هَذَا هُو الحلّ .

صاحَ الزعيم :

ــ ماذَا تقولُ يا مجنون ؟ هل تَخِيطُ ثِيابَنَا بحربةِ

هذا المُحارب ؟

أجاب « هاو » ضاحكا :

ــ سأَضعُ إبرَتى علَى شكلِ حَربة هذا المُحَارب .. وسيكونُ ثقبُ الإبرة قُربَ نِهَايَتِها ، ولَيسَ فِى بِدَايَتِها كما كنتُ أفعَلُ دائما .. يا لَغَبائى .. هكذَا يلتقطُ الخيطَ الآخرَ من المَكُّوك ، ويَصنَعُ الغُرزة .

وصحا « هاو » من نومِه وهو يَصيح :

ــ وجَدتُ الإبرة .. وجدتُ الإبرة .

وأسرعَ « هاو » يُهَروِلُ نحوَ نَمُوذَجِ آلَةِ الخِياطَة ويصيح :

ــ إنَّهُ أَحلَى كابوسٍ رأيتُه فى حَياتِى .. أَحلَى كابوسٍ رآهُ أىُّ إنسان .. ستكونُ إبرةُ الخياطَة مثل حربةِ ذلك المحارب سنُّها مُدَبَّب ، والثَّقبُ قُربَ

آخرِهَا .

ونَجحَ « إلياس هاو » بإبرَتِهِ الجديدة ، فِى التِقَاطِ الخيطِ من المَكُّوك ، وبذلِكَ صَنَعَ أوَّلَ غُرزَةِ خِياطَةٍ آلِيَّة فى التَّاريخ .

وأسرَعَ الرَّجُلُ بالسَّفرِ إلَى شِيكَاغُو ، تَارِكًا زَوجتَه المَريضة ، ليعرِضَ اختِراعَهُ الجَديدَ على إحدَى الشرِكَات ، الَّتى دَعتْهُ لِهَذَا الغَرَض .

وَنَجَحَتْ فِكرَةُ الآلة ، ولكنَّ « هاو » هوجِمَ هُجُومًا شَرِسًا من جَميعِ الخَيَّاطِين ، الَّذينَ ظَنُّوا فِى مَبدإِ الأمرِ أنَّ الآلَةَ سَتَقضِى على مصدَرِ رزقهم ، وراحوا يُقَاطِعونَ الاختِراعَ الجديد ، فلم يَجِد لهُ سُوقًا رائِجة .

وحَزِنَ « هاو » لِكَسَادِ سِلعَتِه ، بَعدَ نَجَاحِ اختِراعِهِ ، ليَجِدَ زوجَتَهُ ، أوَّلَ مَن غَرَس البِذرَة ، والَّتى

أَرَادَ أَنْ تَجنِىَ ثِمَارَها قَد مَاتَت وَحِيدَة ، بَعدَ أَنْ نَهَشَهَا المَرضُ الشَدِيد ، دونَ أَن تَلقى أَىَّ عِلَاجٍ ، ولم يَكُن مَعَ « هاو »فى ذلك الوقتِ قِرشٌ واحد ، يُشَيِّعُ بِهِ جِنَازَةَ زوجَتِه .

وبعدَ جِهادٍ مَرِيرٍ استَمَرَّ عشرَ سنواتٍ كاملة ، أَمكَنَ « إلياس هاو » سنة ١٨٥٤ م. أن يُسَجِّلَ حُقُوقَ اختِرَاعِهِ الجَديد ، بَعدَ أَنْ انتشَرَ فى كُلِّ مَكان .

واليومَ نَرَى آلاتِ الخِياطَةِ على اختِلَافِ أَنواعِهَا فى كلِّ مَكان ، نَخِيطُ بِهَا مَلابِسَنَا ، وتَصنَعُ لَنَا الغُرزَةَ تِلوَ الغُرزَة ، وَمِنهَا مَا يُطَرِّزُ لَنَا المَلَابِسَ بِنُقُوشٍ جميلة ، ومنها ما يُثَبِّتُ الأَزرار ، ومنها ما يَفتَحُ العَراوى فى مختلِفِ الملابس .

ومعَ ذلِكَ التَقدُّم ، وفى كلِّ يوم نلبسُ رِدَاءً جديدًا أو قديما ، يجبُ ألَّا ننسَى أَنَّ الفَضلَ كُلَّ الفَضلِ كان



لِطِفلٍ صَغيرٍ غُرِسَتِ الإبرةُ فِي إصبَعِه ، ولِزَوجَةٍ وَفِيَّةٍ دَفَعَت زوجَهَا ، بِتَشجِيعِهَا المُستَمِرّ ، وإخلَاصِهَا لِلمُضِيِّ قُدُمًا فى الانتهاءِ من اختِرَاعِه ، اختِراعِهِ الَّذى غَيَّرَ الدُّنيا .